قصة مثل

- ١ -

دفناه سوا

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح د ف
دفناه سوا / بقلم محمد ماهر قابيل.- القاهرة : دار الفكر العربى ، إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص؛ ٢٤ سم.- ([سلسله] قصة مثل ؛ ١)
تدمك : ١- ١١٥٠٠ - ١٠ - ٩٧٧.
١- الأمثال العامية العربيـــة. أ - العنـوان . ب - السلسلة.

ضاقت الدنيا بمنصور وسلمان بعد أن استنفدا ماالديهما من حيل .

كان منصور وسلمان صديقين، يعيشان فى إحدى القرى الصغيرة ، ويعملان بالأجر عند الناس . جمع بينهما الفقر فكانا متلازمين . لايرى أحدهما إلا بصحبة رفيقه كأنهما رجل وظله . حتى تندر الناس بهما، وشاعت عنهما الفكاهات . فأطلق عليهما البعض "صرمان" اشتقاقا من اسميهما معا . وقالوا إن طول منصور يكمل بدانة سلمان فيصنعان بتحالفهما هيبة كاذبة . وسخروا من اجتماع تعاسة الأول وخيبة رجاء الآخر .

وكان سبب ذلك أن الفتيين لم يستمرا فى عمل ، ولم يفلحا فى حرفة . فقد كانا كسولين لايوقظهما من النوم إلا الجوع، عابثين لايحضران فى موعدهما، ولايكفان عن المزاح واصطناع الألاعيب .



بدأ بالعمل فى حقل الحاج شعبان . وهو فلاح طيب مثابر . لاهم له إلا العناية بزراعته وماشيته . يبكر فى الذهاب إلى حقله بعد صلاة الفجر مباشرة، ويقضى نهاره فى كد لايكل ولايمل، ولايتوقف عن عمله إلا لأداء الصلاة أو لتناول طعام بسيط . ولم يكن الحاج مع نشاطه وحيويته فى غنى عن العون والمساعدة . وقد وجد فى منصور وسلمان شابين يمتلئان صحة وفتوة . فتفاءل خيراً، وتناسى ماسمع عن سيئاتهما متعللا بأنها أفاعيل صبية مضت وانقضت. لكنه لم يلبث أن ندم أشد الندم على حسن ظنه بالشقيين . فقد أفسدا جزءا كبيرا من محصول الخضر بإهمالهما . ولم يكن أمامه إلا أن يطردهما آسفا على خسارته، داعيا الله أن يعوضه عنها خيرا .

وذهب منصور وسلمان إلى معمل عبد الجواد السبع للجبن يبحثان عن عمل . وكان عبد الجواد وافدا على القرية، غريباً عن أهلها. قدم إليهم فاستقبلته عائلة النجار التى اشتهرت بإكرام الضيف، وهيأت له فرص العيش حتى تحسن حاله، وراجت بضاعته، فأصبح يشترى اللبن من سائر الفلاحين، وينتج منه الجبن بأنواعه، فيبيع فى القرية بعضه، ويبعث إلى المدينة القريبة ببعضه الآخر .

وقد تردد عبد الجواد فى قبول منصور وسلمان حتى أقنعاه ملحين بأن يجربهما . وكانت تجربة مريرة .

كانا يغلقان بعض العلب على الماء فقط دون جبن . فلا يكاد المشترى يفتح العلبة حتى تذهله المفاجأة . وساءت سمعة معمل عبد الجواد التى هى عماد رواج بضاعته . فتدارك الأمر بذكاء التاجر . وكان يعطى لكل من يأتيه شاكيا تعويضا مناسبا من الجبن مع الاعتذار الواجب . وبالطبع لم يفته أن يطرد منصور وسلمان إلى غير رجعة .

واتجه الصديقان إلى متجر عبد الحميد الشرقاوى الذى كان رجلا مسنا ضعيف البصر، ثقيل السمع، يعانى من شلل خفيف يؤثر على ثبات حركته . وربما كان ذلك دافعه إلى التغاضى عن ماضيهما، وقبول عملهما فى متجره . لكنهما سرعان ما استغلا الحالة الصحية للرجل . فكانا يختلسان لنفسيهما كثيرا من السلع والنقود . حتى أفلس المتجر . فباعه الشرقاوى . كما باع بيته أيضا . وهاجر حزينا إلى قرية بعيدة .

بعدها عمل منصور وسلمان على عربة عوض بن عواد . ولم يكن عوض هذا أقل منهما فسادا وانحرافا . فوجد فيهما زميلين ملائمين، عرفهما منذ الطفولة على مقهى حسونة، وشاركهما التدخين ولعب الورق على رهان . وهكذا قدر عوض أن اللص لايسرق لصا . وكأن الخيانة ليست من شيم اللصوص .



لكن صديقيه القديمين أخلفا ظنه . فكانا يسرقان أكثر الأجر، ويتركان الحصان بلا طعام، ويستمتعان بجلده وإرهاقه . وقد قسما العمل بينهما : فكان منصور يقود الحصان يوما، ويترك تحصيل الأجر لسلمان . وفى اليوم التالى يقود سلمان الحصان، ويحصل منصور الأجر . فذاق الحصان من شرورهما الويل وضج الركاب من جشعهما وخراب ذمتيهما . وكانا يعودان إلى عوض كل يوم بأقل القليل من النقود . ويعتذران تارة بقلة الركاب، وتارة بمرض الحصان، وتارة بنفقة طارئة اضطرا لإنفاقها على إصلاح العربة أو على مداواة الحصان من عارض ألم به . وظل عوض فى حيرة بين التصديق وبين التكذيب . يدفعه إلى التصديق ود الصديق، ويهوى به إلى التكذيب تدهور الحال، ويصبر نفسه

بمصاعب البدايات، ويتعزى عن تناقص الإيراد بوهم الأمل حتى وقعت الواقعة، ونفق الحصان بعد شهر واحد من عمل الفتيين على العربة . وكانت كارثة حقيقية حلت بعوض فى مورد قوته حتى عزاه الناس كأن الميت إنسان . وما كاد عوض يفرغ من تقبل العزاء فى حصانه حتى طرد صاحبيه ناعيا فقيده العزيز، وحظه العاثر .

ولم يجد الشقيان إلا فرصة للعمل فى مصنع لمواد البناء يمتلكه خمسة شركاء . كان عملا يدويا يخضع لرقابة، ولا يتيح أمامهما مجالا للإفساد . ولم تكن لهما طاقة على احتمال مشقة مثل هذا العمل . وكانت طباع السوء غالبة فيهما على كل تأديب وتهذيب . فلم يلبثا إلا بضعة أيام حتى سعيا بين الشركاء بالنميمة : فذهبا مساء إلى أحد الشركاء، وقالا له إن شريكا آخر يذمه بما ليس فيه ثم خرجا من عنده إلى الآخر فقالا له مثلما قالا للأول . وفى ليلة تالية زعما لشريك ثالث أن شركاءه الأربعة يغبنونه فى توزيع الربح . وفى ليلة ثالثة ادعيا للشريك الرابع أن شركاءه يخططون للاستيلاء على حصته بثمن بخس، وأن عليه من ثم أن يأخذ الحذر . وفى الليلة ذاتها تناولا طعام العشاء فى بيت الشريك الخامس، وأبديا له الشكر على عطفه وكرمه، وأكدا له إخلاصهما بأن كشفا له عن سر لاوجود له إلا فى خيالهما الآثم هو أن شركاءه يتآمرون على حياته .

ثم وصل بهما الاستهتار إلى حد بيع بعض أدوات المصنع خلسة . وتصاعدت المشاكل التى أثارها تنازع الشركاء بالفتن التى بثها اللئيمان . واتهم كل شريك شركاءه بأنهم المسئولون عن ضياع الأدوات المفقودة . وتفاقمت الأزمات حتى انتهت إلى إغلاق المصنع ذاته ، وفض الشركة التى جمعت الشركاء الخمسة .

ودوت الفضيحة حتى تسامع بها أهالى القرى المجاورة . فذهب منصور وسلمان إلى بيت سيدنا . فألقيا عليه السلام . ورد الرجل متوجسا، ثم قبلا يده، فسحبها مستغفرا، ثم جلسا إليه يتحدثان . والرجل ينصت إليهما على مضض، فشكا إليه منصور سوء حالهما . وحكى له سلمان عن الطعام يجدانه يوما ولايذوقانه يوما، وعن الكساء يفتقدانه شتاء وصيفا، وعن الغطاء الذى لايدفىء، وعن المأوى الذى لايستر . وكان للشقيين من براعة القول مايكون عادة لأمثالهما من النصابين .

ولكن سيدنا عنفهما على انحرافهما . وأبدى لهما علمه بقبح فعالهما وخصالهما . فطلبا منه أن يتوبا على يديه . وعندئذ قال لهما الرجل الطيب :

- لابد للتوبة من الندم الصادق .

فسارع منصور قائلا :

- ندمنا ياسيدنا وصدقنا .

واعترض الشيخ متحفظا :

- سمعنا هذا الكلام كثيرا .

فتوسل سلمان إليه راجيا :

- إننا ياسيدنا يتيمان بائسان . ألقى بنا الفقر إلى هاوية لاينتشلنا منها إلا الرحمة.

فرق لهما قلب سيدنا وقال :

- وماذا أستطيع أن أصنع لكما ؟

أجاب منصور مستبشرا :

- نريد العمل عندك ياسيدنا .

تساءل الشيخ فى دهشة :

- إننى أعلم الصبية. فما العمل الذى تقومان به معى ؟

رد سلمان فى حماس :

- نساعدك ياسيدنا . ستجد فينا إن شاء الله عريفين ماهرين .

أردف سيدنا ضاحكا :

- وأمينين ياسلمان .

عقبا معا مؤكدين :

- وأمينين ياسيدنا .

ووافق الشيخ على أن يساعداه . لكنهما استغلا ضعف بصره . فكانا يتآمران مع تلاميذه ضده . فيضعون له الحشرات حيث يجلس، ويختلسون منه النقود والطعام والعطايا التى يعطيها له الناس، ويسكبون الماء فى طريقه ليقع فيضحكون عليه . حتى تحول الدرس إلى ساحة للهرج والعبث، وأدرك الشيخ أن توبة الشقيين كانت مجرد حيلة يحتالان بها على شيبه؛ فطردهما بدوره.

ومنذ ذلك الحين يئس أهل القرية منهما . فلم يقبل أحد استئجارهما أبدا، وأغلقت فى وجهيهما كل الأبواب، وسدت كل المنافذ . فاتجه تفكيرهما إلى العمل الحر .

ولم يكن أمامهما سوى صيد السمك . فجاء كل منهما بواحدة من ذلك الغاب الذى ينمو على حواف الترع، وصنع بها شصا متينا . ثم حفرا معا حفرة صغيرة وصلا من خلالها إلى بعض الديدان الأرضية التى تستخدم فى صيد الأسماك، فاستخرجاها ووضعاها فى علبة قديمة صدئة من الصفيح كانت فى الأصل علبة سردين . ولم يفتهما أن يتهكما كعادتهما على الدور الذى قامت به العلبة فى حفظ السردين، وعلاقته بدورها معهما فى صيد السمك . ثم حملا الشصين والعلبة، وذهبا إلى حافة الترعة، وجلسا متباعدين يجربان حظهما فى حرفة الصيد.

ومضت ساعة، فاثنتان، فثلاث، ولم يحصل الصديقان إلا على بعض الأسماك الصغيرة اللطيفة التى تسر العين، ولاتسد الرمق . فخطرت لسلمان فكرة هى أن يستخدما هذه الأسماك الصغيرة فى الصيد لعلهما يوفقان إلى صيد أسماك كبيرة بها . وهكذا تقاسما أسماكهما الصغيرة، وعادا إلى الجلوس متباعدين مرة أخرى يراودهما الأمل فى وجبة شهية من اللحم الأبيض الطرى .

ومضت ساعة، فاثنتان، فثلاث، فأربع، ولم تخرج سمكة كبيرة واحدة . فأدرك الصديقان أن الصيد مهنة شاقة تحتاج إلى صبر وخبرة، ولم تكن لهما خبرة بالصيد، ولاقدرة على الصبر .

واقترح منصور على صاحبه أن يأتيا ببعض السموم التى تستخدم فى المبيدات الحشرية، ويلقيا بها فى ماء الترعة . فاستحسن سلمان الرأى. وبادرا من فورهما إلى العمل به. ولكى يضمنا لنفسيهما كمية ضخمة من السمك، سكبا فى الترعة كثيرا من السموم.

فطفت الأسماك ميتة، ونفقت بعض الحيوانات أيضا . وعرف أهل القرية أن منصور وسلمان هما سبب المصيبة . وطار الخبر إلى دوار العمدة، ونفر له الخفراء وشيخهم على رأسهم، ورأى شيخ البلد أن الكيل قد طفح والصبر قد نفد، والسهم قد نفذ، فأشار على العمدة بإبلاغ المركز لتتولى الحكومة عقاب الشقيين . لكن العمدة خشى أن يتهمه المأمور بالضعف وعدم القدرة على حفظ الأمن؛ فاكتفى بطرد الفتيين من القرية كلها.

وخرج الصديقان يبحثان عن الطعام والمأوى، ويعانيان البؤس والتشرد .

كانت ليلة ممطرة من ليالى شتاء بارد، وكانت الريح عاصفة، والبرق لامعا، والرعد قاصفا . وكان صدى عواء الذئاب ونباح الكلاب يقذف الرعب فى القلوب . فحاول الصديقان إشعال نار للتدفئة، ولإخافة الحيوانات الضالة والمفترسة . لكن الأعشاب كانت مبتلة لاتصلح للإشعال . ثم شغلهما الجوع عن البرد والخوف . وبدت الدنيا – على ماوسعت– فى وجهيهما أضيق من ثقب إبرة.

وخطرت لمنصور فكرة صارح بها صاحبه . وكانت الفكرة ببساطة هى أن يحترفا التسول . فهى مهنة مريحة ومربحة . أما مهانتها فهى مما لايهتم به فاقدو الكرامة من أمثالهما . وشجع منصور صاحبه قائلا :

– لقد سمعت عن بعض الشحاذين الشطار الذين جمعوا ثروات طائلة .

فتساءل سلمان متعجبا :

– وهل فى الشحاذين أيضا شطار وغير شطار ؟

أجابه منصور موضحا :

– من غير شك . إن الشحاذة ياصديقى فن رفيع يحتاج فى البدء إلى الموهبة ثم إلى المران والدربة بعد ذلك .

فسأله سلمان ساخرا :

– كيف ياأستاذ الشحاذين ؟

اتخذ منصور سمت العلماء ، وأفاض شارحا :

– أما الموهبة فمبعثها قدرتك على استدرار العطف . أرأيت المحتاج الذى لاتظهر حاجته ؟ هذا يعدم موهبة الاستجداء . أما المران والدربة فلهما قواعد وأصول ، وأمرهما إلى أخيك موكول . فمن ذلك سجع الكلمات، ومنه إذلال النبرات، ناهيك عن اصطناع العاهات . فأنت فى وقت العمل أعمى أو كسيح أو أعرج أو فاقد الذراعين . فإذا انتهيت من عملك عدت صحيح البدن حتى يحين موعد العمل.

وضحك سلمان مليا وقد راقت له الفكرة الشريرة، فرحب بها قائلا :

– لابأس يامعلمى . نجرب.

ومع الصباح، شرعا فى التنفيذ . فكانا يطوفان بالبيوت، وقد اصطنع أحدهما العمى، وسحبه الآخر مصطنعا العرج . فيطرقان الأبواب، ويستجديان الإحسان . وكان مايحصلان عليه من خبز يفيض عن حاجتهما فيبيعانه . ثم يقتسمان ثمنه مناصفة .

وطاب لهما العيش على هذا النحو، وتضاعفت أرباحهما . وذات يوم، اشتريا من الجزار لحم ضأن، وحملاه إلى الفرن حيث وضعه الخباز فى رغيفين لم ينضجا بعد . ثم أدخل الرغيفين الفرن فنضج اللحم والخبز معا . فنقده منصور أجره بكبرياء . ثم ذهب مع سلمان إلى الفاكهى . فاشتريا منه كميات كبيرة من المانجو والموز والبلح والرمان . وذهبا بطعامهما إلى شجرة جميز يتفيآن ظلالها، ويأكلان، ويتسامران .

قال منصور مباهيا :

– أرأيت ياسلمان ماآل إليه حالنا ؟

أجاب سلمان فى سعادة :

– نعم يامنصور . نأكل الضأن والفاكهة، ولولا طبيعة العمل لارتدينا الصوف والحرير

قال منصور مسرورا :

– نرتديه ياأخى . . نرتديه . ولكن فى غير أوقات العمل .

تخوف سلمان قائلا :

– ويرانا المحسنون نكتسى بما لايحلمون هم به ؟

رد منصور مهونا :

– لن يعرفنا أحد إذ تختفى العامة، وتزهو الثياب . كما أننا لن نرتديها حيث نعمل ونعيش، وإنما نخصصها لنزهاتنا فى المدن البعيدة أيام إجازاتنا .

ضحك سلمان قائلا :

– قاتل الله شيطانك . جعلت لنا إجازات أيضا .

عقب منصور مضيفا :

– وتأمينات ومعاشات وشرفك .

صاح سلمان مستهزئا :

– حلفت بالغالى . لابد أن نحسب حساب الزمن، ونستعد لسنوات التقاعد . لكن ذلك يقتضى التوسع فى نشاطنا . مارأيك فى أن نشترك فى شراء حمار يعيننا على الانتقال، ويحمل متاعنا وخبزنا ؟

واقتنع منصور بالاقتراح . فذهبا إلى سوق الثلاثاء، وانتقيا حمارا هزيلا ضامرا مريضا رخيص الثمن، ووضعا فوقه مايحملان، ثم ركباه معا، وألهبا ظهره بعصا اشتراها له منصور . فلم يكد الحمار يصل إلى منتصف الطريق بين قريتين حتى سقط ميتا .

وبادر الشقيان على الفور بحفر حفرة كبيرة عميقة دفناه فيها . ثم أهالا عليه التراب بهمة وسرعة . ووقفا فوقه يصيحان وينتحبان :

– مات الشيخ . . الشيخ مات .

ولطم منصور خديه صارخا :

– ياقطب المشايخ .

فرد سلمان وهو يقرع رأسه بيديه :

– يازين الأوليا .

فرفع منصور صوته إلى أقصى درجاته قائلا :

- ياصلاتك وصومك .

فقفز سلمان هاتفا :

- يوم الوعد يومك .

وظلا على هذا المنوال يتناوبان حتى اجتمع حولهما الناس يسألون عن الخبر .

فانبرى لهم منصور شارحا :

- إننا كنا نسير فى صحبة شيخ جليل صالح منقطع للعبادة . يقوم الليل مصليا، ويقضى الدهر صائما . ولايكف يومه عن التسبيح والتهدج . ولايبقى معه مال قل أو كثر إلا تصدق به . وقد كنت وصاحبى نلازمه، ونقوم على خدمته، ونرى من بركاته الأعاجيب : فتارة يشير بيده، فتهبط علينا مائدة من السماء عامرة بالطعام الذى لم تره عين، وتارة يربت على ظهرينا فإذا بنا قد اكتسينا ثوبين من سندس وإستبرق، وتارة يشير إلى النهر بإصبعه فيجف فى موضع منه حتى نعبره ثم يعود إلى جريانه . حتى وصلنا إلى هذا المكان فإذا بالشيخ يصافحنا مودعا على وعد اللقاء ثم يسقط ميتا . فقمنا بدفنه حيث مات.

وسأل الناس عن اسم الشيخ فتبادل الشقيان النظرات . وخطر لسلمان اسم "الشيخ حصاوى" فابتسم قائلا :

- الشيخ قطاوى .

وتأثر الناس السذج بالموقف، وصدقوا الأكاذيب، فعزموا على بناء مقام للشيخ قطاوى . ولم يجدوا للقيام على المقام خيرا من صاحبى الشيخ . فهما اللذان لازماه حيا، وهما الأحق بملازمته ميتا .

وارتفع البناء سامقا مهيبا . وقصده طلاب الحاجات من كل صوب . ووضع منصور وسلمان صندوقا للنذور على الجدار الأمامى للمقام . فكان الفلاحون يضعون فيه نذورهم . وكان منصور وسلمان يقتسمان النقود كل مساء . وذاعت شهرة الشيخ قطاوى فى القرى المجاورة . وتحدث الناس ببركاته وتجلياته . فأقبل الوافدون عليه من أماكن بعيدة . وازدادت حصيلة صندوق النذور . واستمرأ منصور وسلمان اللعبة فلبسا ملابس الشيوخ . وتظاهرا

بالتقوى والصلاح . وبالغا فى تعداد كرامات الشيخ قطاوى . ودأبا على اقتسام العائد الوفير لدجلهما . وجلسا فى ليلة مقمرة يتحدثان .



قال منصور :

– كنا نسعى إلى الرزق . فأصبح الرزق يسعى إلينا .

وقال سلمان :

– غزيرا كماء الفيضان .

فأردف منصور قائلا :

– وبلا أدنى تعب .

قال سلمان بأنفة :

– لا نطرق باب أحد، ولانسأل، ولانستجدى، ولانتوسل، ولانستعطى .

قال منصور مؤمّنا :

– أصبحنا شيخين محترمين . يأتى إلينا المال والطعام الدسم مع خالص التوقير، ويقبل الذين يأتون به يدينا فى خشوع . ويسألوننا الدعاء والبركة .

عقب سلمان قائلا :

– كان ينبغى أن يكون ذلك منذ خرجنا من قريتنا .

قال منصور فى وقار الحكماء :

– كل شىء بأوان ياشيخ سلمان .

وأعجب سلمان بالسجع فجارى صاحبه قائلا :

– مرزوق ومستور ياشيخ منصور .

ضحك منصور قائلا :

– الفضل كله للشيخ قطاوى .

وشاركه سلمان الضحك فى نشوة .

* * *

وذات يوم شعر منصور بآلام حادة فى بطنه فسافر إلى المدينة ليدخل مستشفاها . وحل المساء دون أن يعود ففتح سلمان صندوق النذور، وأخذ منه ماشاء لنفسه، واحتفظ بالباقى لصاحبه .

وبعد خمسة أيام، عاد منصور فاستقبله سلمان معانقا وهو يقول :

– الحمد لله على السلامة . ماكل هذه الغيبة ؟

أجاب منصور :

– أدركنى الأطباء فى الوقت المناسب . ولو تأخرت لساءت العاقبة .

قال سلمان مواسيا :

– قدر ولطف . كنت فى غاية القلق عليك . ولولا خوفى أن تسرق النذور للحقت بك وظللت بجانبك .

قال منصور متلطفا :

– حسنا فعلت . وإلا لضاع منا مبلغ كبير .

وفهم سلمان أن صاحبه يلمح إلى نصيبه، فبادر بتقديمه إليه . وذهل منصور لضآلة المبلغ فعاتب زميله على هذه الخيانة . وتطور الأمر بينهما إلى مشادة .

فقال سلمان :

– ماذا أفعل ؟ قلّت النقود فى الأيام الماضية .

قال منصور غاضبا :

– كذب .

ثار سلمان لكرامته قائلا :

- أنا لا أكذب .

قال منصور فى حدة :

- أنت كذاب ولص .

أقسم سلمان قائلا :

- ورحمة الشيخ قطاوى .

فقال له منصور :

- الشيخ قطاوى . لقد دفناه سوا !

رقم الإيداع	٧٨٢٥ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	٩٧٧ - ١٠ - ٠٥١١ - ١